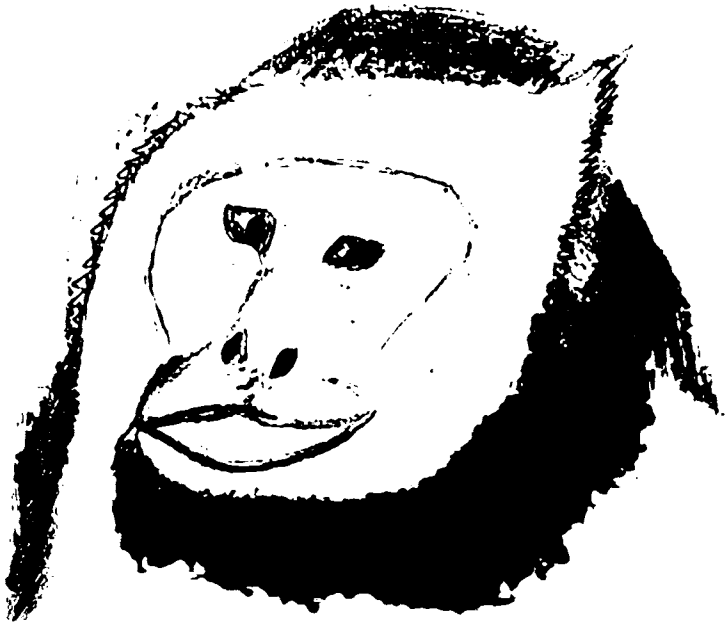


أصحاب السبت



نسبهم

لم يذكر نسبهم على وجه التحديد، ولكن قال ابن عباس: إنهم كانوا من بني إسرائيل^(١).

موقعهم الجغرافي

قرية على شاطئ البحر^(٢). بين مدين والطور.

صفاتهم

حياتهم

قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهَوُّا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦]، وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦]، وقال تعالى في سورة النساء: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

(١). انظر: البداية والنهاية (٢٧٤/٩).

(٢). انظر: البداية والنهاية (٢٧٤/٩).

هم أهل أيلة. بين مدين والطور. وكانوا متمسكين بدين التوراة في تحريم السبت في ذلك الزمان، فكانت الحيتان قد ألقت منهم السكينة في مثل هذا اليوم، وذلك أنه كان يحرم عليهم الاصطياد فيه، وكذلك جميع الصنائع والتجارات والمكاسب، فكانت الحيتان في مثل يوم السبت يكثر غشيانها لمحلثهم من البحر، فتأتي من ها هنا وها هنا ظاهرة آمنة مسترسلة، فلا يهيجونها، ولا يذعرونها. ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾، وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت. قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾، أي: نختبرهم بكثرة الحيتان في يوم السبت. ﴿يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، أي: بسبب فسقهم المتقدم، فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها في يوم السبت، بأن نصبوا الجبال والشباك والشصوص، وحفروا الحفر التي يجري معها الماء إلى مصانع قد أعدوها، إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها، ففعلوا ذلك في يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت، علقت بهذه المصايد، فإذا خرج سبتهم أخذوها، فغضب الله عليهم ولعنهم، لما احتالوا على خلاف أمره، وانتهكوا محارمه بالحيل، التي هي ظاهرة للناظر، وهي في الباطن مخالفة محضة، فلما فعل ذلك طائفة منهم افترق الذين لم يفعلوا فرقتين: فرقة أنكروا عليهم صنيعهم هذا، واحتيالهم على مخالفة الله وشرعه في ذلك الزمان. وفرقة أخرى لم يفعلوا ولم ينهوا، بل أنكروا على الذين نهوا، وقالوا: ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، يقولون لهم: ما الفائدة في نهيكهم هؤلاء وقد استحقوا العقوبة لا محالة؟ فأجابتهم الطائفة المنكرة

بأن قالوا: ﴿مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكَ﴾، أي: فيما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنقوم به خوفاً من عذابه. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، أي: ولعل هؤلاء يتركون ما هم عليه من هذا الصنيع، فيقيمهم الله عذابه، ويعفو عنهم إذا هم رجعوا واستمعوا. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، أي: لم يلتفتوا إلى من نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفظيع ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾، وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهم المرتكبون الفاحشة ﴿عَذَابٍ بِئْسَ﴾، وهو الشديد المؤلم الموجه ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، ثم فسر العذاب الذي أصابهم بقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

والمقصود هنا: أن الله أخبر أنه أهلك الظالمين، ونجى المؤمنين المنكرين، وسكت عن الساكتين، وقد اختلف فيهم العلماء على قولين، فقيل: إنهم من الناجين. وقيل: إنهم من الهالكين. والصحيح الأول عند المحققين، وهو الذي رجع إليه ابن عباس، إمام المفسرين، وذلك عند مناظرة مولاه عكرمة، فكساه من أجل ذلك حلة سنية، تكرمة. قلت: وإنما لم يذكروا مع الناجين؛ لأنهم وإن كرهوا ببواطنهم تلك الفاحشة، إلا أنهم كان ينبغي لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل بالمأمور به من الإنكار القولي، الذي هو أوسط المراتب الثلاث، التي أعلاها الإنكار باليد ذات البنان، وبعدها الإنكار القولي باللسان، وثالثها الإنكار بالجنان. فلما لم يذكروا، لم يذكروا مع الناجين، إذ لم يفعلوا الفاحشة، بل أنكروا. إن الذين ارتكبوا هذا الصنيع، اعتزلهم بقية أهل

البلد، ونهاهم من نهاهم منهم، فلم يقبلوا، فكانوا يبيتون وحدهم، ويغلقون بينهم وبينهم أبواباً، حاجزاً لما كانوا يترقبون من هلاكهم، فأصبحوا ذات يوم وأبواب ناحيتهم مغلقة لم يفتحوها، وارتفع النهار واشتد الضحاء، فأمر بقية أهل البلد رجلاً أن يصعد على سلالم ويشرف عليهم من فوقهم، فلما أشرف عليهم، إذا هم قردة لها أذنان يتعاونون ويتعادون، ففتحوا عليهم الأبواب، فجعلت القردة تعرف قراباتهم، ولا تعرفهم قراباتهم، فجعلوا يلوذون بهم، ويقول لهم الناهون: ألم نهكم عن صنيعكم؟ فتشير القردة براء وسها: أن نعم. ثم بكى عبدالله بن عباس، وقال: إنا لنرى منكرات كثيرة، ولا ننكرها، ولا نقول فيها شيئاً. وعن ابن عباس: صار شباب القرية قردة، وشيوخها خنازير. وعن ابن عباس، أنهم لم يعيشوا إلا فواقاً، ثم هلكوا، ما كان لهم نسل. وعن ابن عباس: إنه لم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل هؤلاء، ولم يشربوا، ولم ينسلوا. وعن مجاهد أنه قال: مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة وخنازير، وإنما هو مثل ضربه الله، كمثل الحمار يحمل أسفاراً. وهذا صحيح إليه، وغريب منه جداً، ومخالف لظاهر القرآن، ولما نص عليه غير واحد من السلف والخلف. والله أعلم^(١).

وقال بعض الأئمة: في هذه الآية مزجرة عظيمة للمتعاطين الحيل على المناهي الشرعية، ممن يتلبس بعلم الفقه وليس بفقيه؛ إذ الفقيه من يخشى الله تعالى في الربويات والتحليل باستعارة المحلل للمطلقات

(١). انظر: البداية والنهاية (٥٨٢/٢-٥٨٦).

والخلع لحل ما لزم من المطلقات المعلقة، إلى غير ذلك من عظام ومصائب لو اعتمد بعضها مخلوق في حق مخلوق، لكان في نهاية القبح فكيف في حق من يعلم السر وأخفى. ولهذا والله أعلم مسخوا قرده، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان. وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله، بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته، مسخهم الله قرده يشبهونهم في بعض ظاهرهم، دون الحقيقة جزاءً وفاقاً.

فإذا كان الله سبحانه قد نكل بعقوبة هؤلاء سائر من بعدهم ووعظ بها المتقين، فحقيق بالمؤمن أن يحذر استحلال محارم الله تعالى، وأن يعلم أن ذلك من أشد أسباب العقوبة، وذلك يقتضي أنه من أعظم الخطايا والمعاصي، ثم مما يقضي منه العجب أن هذه الحيلة التي احتالها أصحاب السبت في الصيد قد استحلها طوائف من المفتين، حتى تعدى ذلك إلى بعض الحيلة، فقالوا: إن الرجل إذا نصب شبكة، أو شصاً قبل أن يحرم، ليقع فيه الصيد بعد إحرامه، ثم أخذه بعد حله لم يحرم ذلك، وهذه بعينها حيلة أصحاب السبت، وفي ذلك تصديق قوله ﴿فَاسْتَنْتَعِمُوا بِمَخَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]. وقول النبي ﷺ: «لتبعن سنن من كان قبلكم حدوا القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب

لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»^(١)
وهو حديث صحيح، وهذا كله إذا تأمله اللبيب علم أنه يدل على أن هذه
الحيل من أعظم المحرمات في دين الله تعالى^(٢).

العبر والعظات المستفادة

لقصة أصحاب السبب أهمية بالغة لتعلقه بدراسة القصص القرآني،
واستنباط ما فيه من دروس وعبر. ومعرفة طبائع اليهود للحذر من سوء
أساليبهم وحيلهم الخبيثة؛ فلا شك أنهم أعدى أعدائنا. وحاجة الدعاة
والمصلحين والمربين إلى الاستفادة من قصص القرآن وتوظيفه في
الدعوة والتربية ومنها:

١. الاعتبار بأحوال الأمم الماضية.
٢. أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم الوقوف
على الحياد.
٣. التحذير من التهوين في شأن الإصلاح.

(١). أخرجه البخاري (١٦٩/٤) رقم (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٠٥٤/٤) رقم (٢٦٦٩).
(٢). انظر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحارثي
الحنبلي الدمشقي، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م (٢٤/٦-٣١).

٤. عدم التحايل على المعصية لسد الذرائع والحيل المفضية إلى الحرام.

٥. الفرقة التي عصت أوامر الله، وتمادت في معصية الله، كانت هالكة، والفرقة التي أنكرت العصيان ووعظت العصاة، كانت ناجية. وأما الفرقة الساكتة فكانت على الراجح من الناجين، لإنكارها بالقلب.

